

الثورة الثقافية

محاضرة الموسم الثقافي
لوزارة الثقافة والفنون

١٩٧٨-١-٢٨

« الثورة الثقافية » اصطلاح جديد « كالتسير الذاتي »
اصبحت له جاذبية ، ولقى رواجا في لغة الثورات والتجارب الحديثة،
وأصبح من مفاتيح الفكر المعاصر . وهو يذكرنا بأهمية الكلمة
ودورها في التاريخ : (الحرية) ، (السيادة) ، (العدالة) ،
(الاشتراكية) ، (الديمقراطية) ، (التوحيد) ، (المساواة) ،
(المحبة) ، (الرسالة) . . . كلمات كان وما زال لها سلطان ، لأنها
عبرت عن جوهر الإنسان وكانت رمزاً لراحل اجتماعية جديدة
نضجت ظروفها وعواملها وفكرتها ، فجاءت فيها العبارة أشبه
بالشارة ، وارتفعت الكلمة إلى مستوى الآية .

ان (قوة الكلمة) هي التي أوحى لشاعر المقاومة الفرنسي
(بول إيلوار) Paul Eluard قوله « وبقوة الكلمة ، اتابع حياتي
من جديد ، تلك الحياة التي كاد ان يقطعها اليأس » .

الطبع العقلاني على الحياة) ، ليس في رأي المفكر غارودي سوى امتداد لتلك النظرة الى العالم التي اضججتها الحضارة الاولى للبشرية على حوض دجلة والفرات .

فقبل (الالياذة) الياذة هوميروس اليونانية ، بالف وخمسمائة سنة ، وقبل ان يكتب الشاعر الالماني (جوته) رائعته (فاوست) بنيف وخمسة آلاف وثمانمائة سنة ، تزيح ملحمة كلكامش الستار عن (اول اثر فكري تاريخي ينطوي على مفهوم الانسان الذي يتحدى الموت ، ويسيطر على الطبيعة ، ويحارب انداده ، ويندود عن حياضه ، ويتوقد بتعطش نهم الى المعرفة) . فعندما يسأل الاله (شمس) كلكامش : « لماذا تحاول المستحيل » ؟ يجيبه قائلًا : اذا كان المجهول ينبغي ان لا يرتاد ، فلماذا ايقظت في قلبي الرغبة القلقة التواقة اليه ؟ . ثم ان كلكامش يضيق ذرعا بالافق الضيق للمدينة ، فيتطلع خلف اسوارها ، ولكن عينه تصطدم بجدار آخر يرسمه الافق ، انه يفتش عن معنى لحياته خارج جدران (المدينة) ، التي يتعلم فيها الانسان كيف يعيش ، ولكنه لا يتعلم معنى الحياة ، فيموت كمدا منقبض القلب) . ان انصاج مثل هذه المفاهيم عن الانسان والقدر ومعنى الحياة ، قد كان بمثابة ثورة ثقافية في عالم الانسان فالحضارات البشرية والديانات الانسانية كانت وثبتت رائعته في مسيرة التطور البشري .

والثورة الثقافية ، في ظل السياق الراهن لتطور الثورات في العالم ، تأخذ معنى (حماية) الثورة قبل ان تأخذ معنى (تجديد) الحياة (الثورية) ، ودخول (الفكر الثوري والعمل الثوري) مرحلة جديدة متقدمة متكافئة مع التقدم العلمي والخبرة المتراكمة للمارسة الثورية . وهي بالدرجة الاولى تكافؤ مع الاخطار المصيرية التي تتعرض لها الثورات الحديثة .

ولئن كان اصطلاح الثورة الثقافية ، حديثا ومقتربا في الذهان باحداث الصين (اعوام ١٩٦٦ - ١٩٦٩) ، فإن المعانى التي يدل عليها قديمة ، وجزورها التاريخية تتصعد الى نشأة الحضارات والديانات وغيرها من (الفرزات الكبرى في الوعي وفي التطور التي شهدتها التاريخ البشري) .

فمندما يشير المفكر (روجيه غارودي) في كتابه الاخير (في سبل العوار بين الحضارات) ، الى كلمة (بول فاليري) عن اوروبا بأنها (القارة التي صهرت من معادن ثلاثة (التقليد اليوناني) في مجال الفكر والفنون ، و (الحقوق الرومانية) ، ثم (القيم المسيحية الخلقة) ، يتساءل غارودي بحق : ولكن هل يمكن ان تقطع هذه التيارات عن ينابيعها ؟ ، ثم يتتابع قائلًا : (ان الغرب قد ولد في آسيا وأفريقيا ، وبوجه خاص من حضارتي بلاد ما بين النهرين ووادي النيل) وان ما يدعوه الغرب لنفسه من فكر ، ومن حالة ذهنية تميز باتجاهها نحو (السيطرة على الطبيعة) ، ونحو (اسباغ

المستوى الاجتماعي ، وانما اندلعت على صعيد البناء الفوقي)
انما يلخص (ثورة « ماو » الثقافية) التي اخذت بالدرجة الاولى
معنى التعبير عن شخصية (ماوتسى تونغ) ومكوناته الثقافية التي
كشفت الدراسات التي قامت بتحليل مؤلفاته المختارة ، ومنابع
ثقافته ونوعية المراجع والنصوص التي يعتمد عليها ، عن النسب
التالية (*) :

٢٤٪ ستالين

٢٢٪ الكونفوشيوسية

١٨٪ لينين

١٣٪ ادب وقصص فولكلورية

١٢٪ نصوص من الفلسفة (الطاوية) (*)

٧٪ كتاب صينيون واجانب

٤٪ ماركس وإنجلز

فإذا كانت هذه المكونات الثقافية المتعددة المصادر التي تكمن
وراء الحركة الجدلية لفكر ماوتسى تونغ ، هي التي جعلت من

(*) انظر المراجع على الصفحة الاخيرة .

(*) انظر المراجع على الصفحة الاخيرة .

لذلك فان (الثورة الثقافية) بمفهومها العام تعني (اضاج
النظارات والمواقد التي تصعد بالانسان وثورته وبالمجتمعات
وتحولاتها ، نحو آفاق حضارية وانسانية اكبر تقدما) ، وبهذا
المعنى فان في تاريخنا القديم ، والموجل في القدم ، ثورات ثقافية ،
خلقت من امتنا العربية شخصية حضارية متتجددة مفتوحة على
العالم ، ومشاركة في مسيرته التقدمية ، جنبا الى جنب مع الحضارات
والثورات الثقافية التي تعاقبت في التاريخ لدى الامم الاخرى .

وعلى هذا الاساس ، فنحن مدعوون منذ البدء ، الى التمييز
بين الثورة الثقافية (كظاهرة تاريخية نضالية) وبين (نظريات)
الثورة الثقافية كآيديولوجية تمهد عادة للتحولات الكبرى الخامسة
في المجتمع . فتأريخ البشرية يؤكّد حقيقة اساسية : وهي ان الثورة
ليست صدفة ، وليس مجرد حادثة ، وليس حادثة استثنائية ، بل
هي المسيرة الموضوعية الطبيعية للتاريخ القائم على الصراع ، وان
(الثورات الثقافية) انما هي بمثابة تجديد ، وتعزيز وتطوير لتلك
المسيرة . وانها مع تطور دور الثقافة والمعرفة وتطبيقاتها ، ومع
تصاعد جدل الثورة والثورة المضادة ، في العالم المعاصر ، أصبحت
الطابع الملائم للثورات وللتقاليف .

ان تعرّف (البرتومورافيا) للثورة الثقافية (بأنها تعني
ما يدل عليه مبنها المفظي ، من أنها ثورة لم تندلع بدايتها على

وعطاءات نضالية ، ودفعها نحو مشاركة اوسع واقوى في حماية الثورة ودعمها وقيادتها .

وعلى ضوء ذلك يتبيّن ان مفهوم الثورة الثقافية ينطوي على معانٍ جديدة للثقافة والثورة ، وللعلاقة بينهما . فالثقافة والثورة يندمجان في بوتقة انصهار واحدة فلا تعود الثقافة مجرد (بنية فوقيّة) ، بل تغدو الارض والاصل والاساس لكل وجود فوقى (سياسي وايديولوجي) ، ولكل وجود قاعدي (اقتصادي واجتماعي) لانها تصبح عملية ولادة جديدة وسلاماً قومياً وطبقياً وحضارياً ، في يد انسان وطائماً واجيال ثائرة . فالثورة الثقافية تهدف الى ان تجعل من الثقافة (اداة انباث للثورة) تربطها بالحركة الجدلية لضال الامة وتطور المجتمع . كما انها تجعل من الثورة طاقة متقدمة تهدم اخطاءها بنفسها ، وتنطلق مزودة بطاقة متفجرة جديدة (ترتبط الثقافة بالحركة المبدعة للثورة) .

اما نظريات (الثورة الثقافية) ، فقد اخذت لدى (كارل ماركس) معنى التنبه للمعيقات التي تعترض مسيرة الثورة وللعناصر التي تريد ايقاف الثورة وجعلها تراوح في مكانها ، والعمل على دفع الثورة حتى النهاية والاعتماد على القوى الثورية التي تتمسك بایديولوجية الطبقة العاملة و تعمل على تحقيق رسالتها .

في حين اخذ مفهوم (الثورة الثقافية) لدى (لينين) معنى

(الثورة الثقافية) وسيلة لطبع الثورة الصينية بطابع هذا الفكر (*). فان تجاوز المنظور الجزئي التجربة الصينية ، والتسلّح بنظرية علمية ثورية الى العلاقة بين البنى الفوقيّة والبني القاعدية ، يسمح لنا بآن تتبين ما هو جوهرى وما هو شمولي في كل ثورة ثقافية : وهو (كونها تفتح التجارب الثورية على حركة جدلية دائمة) ، بتصدّيها المبكر والشجاع للظواهر المرضية التي تعيق انطلاقها وتشوه مسيرتها . فالثورة الثقافية اذن ، عودة الى المبررات الاساسية للثورة ، ونضج للعبار عن فكرها ومارستها ، وتعزيز دور الفكر والثقافة في الثورة .

انها ثورة في الوعي والضيير والحياة ، على كل ما لحق بالوعي الثوري وبالضمير الثوري وبالحياة الثورية من شوائب وزيف وعلل يمكن ان تستغل كمحطة للثورات المضادة .

وهكذا ، فان مفهوم الثورة الثقافية ينطوي على مفهوم (العودة الدورية) الى اصاله المنشأ وحرارة البداية ، والى الفعالية التي تحرر ارادة الثورة من العادات والنمطية الآلية ، وتجعل حياتها شفافة ونظيفة ، والى الجماهير للتزوّد منها بدماء جديدة

(*) الطاوية هي الديانة الصينية اليابانية القديمة التي كانت تمجّد (الليل) لانه يوحد العالم . في حين ان النهار يكشف الانقسام . خلافاً للمعتقدات التي كانت تعتبر النهار رمزاً للنور والخير . والليل رمزاً للظلمة والشر .

يستمدان معناهما الحقيقي من صلتهما المباشرة بهذا الصراع .
لان المخطط المعادي للثورة العربية هو بمستوى (المؤامرة الدائمة) .
والجواب عليه لا يمكن ان يكون الا بمستوى (الثورة الدائمة) ،
لذلك فان الثورة الثقافية في الوطن العربي ، لا يمكن تصورها من
خلال حدث يحدث وينتهي كل شيء ، بل هي (مسيرة تنطلق من
استيعاب كامل لقانون موضوعي ، هو قانون (ديمومة الثورة)) .
فالثورة الثقافية كما تفهمها ، ليست مسألة نظرية ، وليس حتى
(مسألة تثوير الثقافة) ، بل هي مسألة الاغناء المستمر لمعطيات
الوجود الشوري . أي للفكر الشوري والبنية التوروية والعلاقات
الثوروية والفعالية الثورية وبكلمة واحدة (اتاجية الثورة) ، على
الصعيدين ، الذاتي والموضوعي ، القومي والقطري ، الاجتماعي
والحضاري . فأمام آثار الظاهرة الاستعمارية التي ما تزال ذيولها
حتى الان ، ماثلة في الأفكار وفي الممارسات . والتي اشار (فرانز
فانون) في كتابه عن (الثورة الجزائرية في عامها الخامس) الى عمق
تأثيرها بقوله : (الاستعمار يشوه الطبيعة الإنسانية ويقتلع الإنسان
المستعمر من جذور ثقافته ويسليه استلاماً كاماً) . وكذلك امام
مخلفات مرحلة الانحطاط والتجزئة والتخلف ، في ظل بنية طبقية
تضع جماهير الامة في صف نضالي والطبقات المستغلة مع الامبراليه
والصهيونية في صف آخر ، لا يمكن للثورة العربية الا ان تكون
(ثورة ثقافية دائمة) ، ثورة في الاعماق تجدد المجتمع وتبدل

١٥٣

(الثورة اللا منقطعة) التي تعبر عن قانون تاريخي موضوعي ،
(هو قانون تحول الثورة الديمocratique الى ثورة اشتراكية) .

اما لدى (تروتسكي) مبتكر الصيغة النظرية (للثورة
الدائمة) ، فإن مفهوم الثورة الثقافية يتضمن (امكانية حرق
المراحل) خلال حقبة غير محددة من الثورة الاشتراكية ، (يغير
فيها المجتمع جلده باستمرار) .

في حين ان مفهوم الثورة الثقافية لدى (ماوسي تونق) يأخذ
معنى (الثورة المستمرة) من منظورين :

- أ - كون الثورة تنطوي على تغيرات نوعية لا متناهية .
- ب - كونها لن تتوقف ابداً .

اما في حزينا ، حزببعث العربي الاشتراكي ، فقد جاء
مفهوم الثورة الثقافية معبراً عن (طبيعة النهضة العربية) وعن
قوانين التحول الموضوعي للحياة العربية في هذه المرحلة التاريخية .
فعالة الامة العربية في مرحلتها التاريخية الراهنة هي (حالة ثورية
دائمة) لأنها في حالة صراع مصيري طويل . ونظرية الثورة الثقافية
لا تفصل عن مسيرة الثورة العربية . فالنظرية والمسيرة كلاهما
وجهان متداخلان وعبران عن حقيقة موضوعية متحركة ونامية
ومتفجرة ، هي (النهضة العربية) ، التي هي حالة صراع يتداخل
فيها العاملان الداخلي والخارجي . فالثورة والثقافة كلاهما

١٥٢

الذات) . فالثورة الثقافية) التي تتطلبها المرحلة الراهنة من حياة الأمة هي خلق الجيل (البطل) . اي الجيل الذي يجسد في ذاته وفي نضاله الصلة بمعاناة الأمة بديموتها وصيورتها ، فتتصبح حياته معبرا جزئيا عن معاناة الأمة (تقربن فيها الشجاعة في محاربة العدو الظاهري بمحاربة العدو الباطني) وتتصبح خطأ مستقيما واضحا ، لا فرق بين باطنها وظاهرها ، ولا تناقض بين يومها وامسها . فالبطل يتتحول من (مجرد فرد) إلى عضو في منظمة انتقالية تصنع الابطال ، والى انسان يرتفع إلى مستوى (الرمز) .

(٢) (النظرة الحية إلى الثورة والى الحزب)^(٢) . النظرة القائمة على رفض (النظرة الجامدة والقوالب والصنمية) . لأن الحر كفالة الحية ، كما يقول الاستاذ ميشيل عفلق (لا تعرف التوقف ، وتيار الحياة تيار مبارك ظاهرمهما تكون الشوائب التي تتعلق به) وحركة الانبعاث ، ينبغي (ان تكون كالبحر لا كالساقية الصافية التي لا تروي أمة ولا تصنع تاريخا) فالعمومية والحرية والاصالة - اساس حركة الابداع والخلق - ينبغي ان تشكل جوهر الحركة الثورية . لذلك فان الحركة مطالبة باستمرار بأن تنتبه الى الخطر الذي يسببه (طغيان الشعارات

(٢) نفس المصدر (النظرة الحية الى الحزب) .

الانسان وخلق الامة خلقا جديدا . فالثورة هي بمثابة الاوكسجين الذي يعيش بذور الحياة الجديدة على الارض العربية ، وكلما قل الاوكسجين وظهرت التشوّهات ، كانت الثورة الثقافية عملية انعاش جديدة ، وتنمية للمناخ الثوري . ومن هذا المنطلق ، كان مفهوم البعد العربي الاشتراكي (للثورة) مفهوما ثقافيا ، فهي لا يمكن ان تكون الا (ثقافية) تحمل نظرة جديدة الى الواقع وتمتلك القدرة التجددية على تغيير بنية هذا الواقع تغييرا حاسما ، وعميقا ، وحضاريا ، كليا بحل تناقضات المجتمع العربي ، وتحقيق شروط الانبعاث القومي . وعلى ضوء هذا المنهج للثورة تأخذ (الثقافة) معنى الثورة التجددية ، ومعنى السلاح ، فهي جزء من الكفاح المسلاح وهي (نضال مع النفس ومع الفكر ، لكي يعيد النظر في الامور الاساسية) ويirth الشخصية العربية من جديد .

اما الاسس التي قامت عليها (نظرية الثورة الثقافية) في البعد ، فتتلخص ، على ضوء دراسة تراث العرب في المبادئ والمنظفات التالية : -

(١) النظرة (البطولية) الى الانسان . فقطع الصلة بمرحلة الانحطاط لا يكون الا بـ عهد جديده (عهد البطولة)^(١) . والبطولة هي التجسيد الحي لنفهم الثورة الدائمة على (مستوى

(١) ميشيل عفلق ، في سبيل البعد (عهد البطولة) .

التقليدية والالقاظ) لأنها (تصبح مهددة بأن تحول إلى
صنم وافكارها إلى اصنام ، فتتردى في السطحية والتقليد ،
ويضعف فيها التوتر والصراع) .

(٣) (النظرة الجدلية لتاريخ الأمة العربية) ، فالاستعداد الدائم
إلى التجدد والثورة ، وتجاوز الأوضاع المعيشية ، وقبول
التجدي والولادة الجديدة ، عملية مستمرة في التاريخ العربي .
فهذه الامة^(٢) ، (التي افصحت عن نفسها وعن شعورها
بالحياة افصاحاً متعدداً ، متنوعاً ، في تشريع حمورابي ، وشعر
الجاهلية ، ودين محمد ، وثقافة عصر المؤمن ، فيها شعور
واحد يهزها في مختلف الأزمان ، ولها هدف واحد بالرغم
من فترات الانقطاع والانحراف) ، فالآلة الحية تنمو وتسكاملاً ،
ويكون ماضيها مهما سما دون حاضرها ، ويكون مستقبلاًها
أمامها لا وراءها ، فلامة دوماً رسالة لم يكتمل اداؤها
بعد) .

(٤) مفهوم (السيطرة على الزمن)^(٤) . (فالمشكلة الرئيسية
بالنسبة إلى العرب هي أن يتمثل نزوعهم إلى التخلص من
الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والنفسية التي

(٢) نفس المصدر (حول الرسالة العربية) وذكرى الرسول العربي .
(٤) نفس المصدر (الحركة الفكرية الشاملة) و (المستقبل) .

تطبع واقعهم ، في حركة تستطيع ان تسيطر على الظروف ،
وأول ما يمكن ان يذكر من شروط لهذه الحركة هو ان تكون
من الناحية الفكرية في مستوى القضية التي تحاول حلها) وان
(يتحقق الانقلاب العربي المنشود منذ الآن في الجيل العربي
الجديد) ، فلن نقول للعرب انكم ستصلون إلى الحياة
الموحدة الحرة الاشتراكية في المستقبل ، وانما نقول لهم هذه
صورتها منذ الآن ، عندها يأتي المستقبللينا وينمو فينا ،
ولا يعود شيئاً منفصلأ وخارجأ عنا) .

(٥) (النظرة الانقلافية الشاملة)^(٥) ، النظرة التي (تربط
الانقلافية بقانون الصراع) ، وتتوجه (إلى الجماهير الكادحة
والى الشباب) وتوكل على (الاعتماد على الذات) ، وعلى
(القيم الأخلاقية) المنبعثة من حاجات النضال وقوانينه
العامة الأساسية (فلا انقلاب بدون صراع ، كما يقول القائد
المؤسس للبعث ، ولا يمكن محاربة الأوضاع المفروضة على الأمة
إلا من خلال الذين يتمسكون بها ويستندون منها ، فالانقلاب
هو صراع ضد الأوضاع ضد العقلية والخلق والمصالح
السائلة) . والامة لم تقطع بعد مرحلة الصراع الذي يحرر

(٥) نفس المصدر (الصلة بين العروبة والحركة الانقلافية) (أخيرة
الشيخ واندفاعات الشباب) و (الإيمان) و (الحركة الفكرية
الشاملة) .

آ - قانون العودة الى الجماهير (فالجماهير هي المرجع الاخير)^(٦) و (تصحيح التواصق والاخطاء في العمل الثوري ، والتخلص من الامراض ، لا يكون جديا وصادقا الا بضمانة من وعي الجماهير ومراقبتها ومشاركتها ومصارحتها بالحقائق)

ب - قانون العودة باستمرار الى مبرر نشأة الحركة الثورية^(٧) .

ج - قانون المراجعة الدائمة واستخلاص دروس التجربة الثورية ومارسة النقد الذاتي ممارسة حية وجريئة ، والتسلك بالمقاييس الثورية ولماحة مدى الابتعاد عن التزامها والتقييد بها ، واعتبار تطوير اساليب النضال الشعبي مهمة ثابتة .

د - قانون (التصدي الدائم للنزاعات التسلطية والاساليب البيرقراطية ومنطق الوصاية الفوقية على الجماهير) والتنبه الدائم الى ان الحركة العربية الانقلابية ، تجد نفسها في كل مرحلة من مراحل تطورها على مفترق طرفيين، فاما ان تكتفي بالخطوات التقديمية التي تحققت،

(٦) ميشيل عقلق (نقطة البداية) - (الجماهير هي الضمانة) .

(٧) المصدر نفسه (نقطة البداية) .

فكرا ويزيل التشويه عن روحها) . طريق النهضة ، طريق الثورة (طريق طويلة ، وكلمة السر التي تبقى على صحة الطريق ، هي الضريبة العادلة التي ينبغي ان تدفعها الامم من اجل ان تنتقل الى الحالة السوية السليمة ، المتمثلة (بالمعاناة والالم وبالثقة بالنفس والاعتماد على الذات) ، حتى تتمكن من اكتشاف (حقيقتها الانسانية) . وكلمة السر هذه هي التي جعلت التوجه ، الى (الشباب) اساسا من اسس انطلاقة البعث (لاز صفات الشباب ، ومميزات الشباب ، هي وحدتها المتلائمة مع حاجات امتنا المتحفزة للبعث وللنهاض) ، ولاز (الثورة بطبيعتها ذات روح شابة) ، ولاز الشباب هم الذين اوصلوا بشفافتهم ونضالهم ، فكر البعث الى الجماهير الكادحة التي تشكل المادة الاساسية والعنصر الاساس في ثورتنا) ثم ان (الحركة التي تستند على المصلحة المادية والمعنوية للشعب ، لابد ان تكون منفصلة عن الفئات والقوى التي تدعم الاستثمار والاستبداد ، وان يكون المجندون في هذه الحركة بصورة طبيعية بعيدين عن الاستغلال ، يفضلون حياة المبدأ على التسعي بالعيش الذي ما زال محظيا على الاكثرية الساحقة من الشعب) .

(٨) انصاف معايير للعمل الثوري قائمة على جملة قوانين اساسية للثورة الفاقية ، أهمها :

ووجدت نفسها امام ارث معقد من الظواهر يتطلب سلسلة من الثورات المتداخلة والمتابعة والمستمرة ، ويحتاج الى حركات ثورية تعرف كيف نكتشف امكانية استعمال المخزون الترايري من الاستعداد الشوري ، وكيف تضع القديم في خدمة انجاز ثورة عصرية ، والغاء القطيعة بين العالمين المتراضفين داخل مجتمعاتها ، والعصور المتباude المستقرة داخل ذاكرتها ولا شعورها .

فالثورة الثقافية في الوطن العربي ، وفي بلدان العالم الثالث ، عملية مصيرية تلبى حاجات التحول التاريخي المعقدة والمتباكة . وليس في مثل ظروف حياة الامة العربية ومرحلتها الراهنة ما يؤكّد هذه الحاجة .

فلتوقف عند اللحظة القومية الراهنة ، ولنتابع ملامح الثورة الثقافية التي نحن بحاجة اليها اليوم ، والتي يتزايد الشعور بضرورتها مع تسارع الاحداث على المسرح السياسي .

لنتوقف عند ما حدث أخيراً في مصر . فقبل ستين، أي بتاريخ ١٩٧٥/١١/١٠ ، كما هو معروف ، صدر قرار الامم المتحدة بادانة الصهيونية كحركة عنصرية ، وكان هذا القرار بمثابة يقظة في الوعي والضمير العالميين . وكان يفترض بأن يكون هذا القرار نقطة انطلاق من اجل نضال عالمي يساند الحق العربي ضد الكيان الصهيوني العنصري المعتصب . ولكن ماذا حدث في ١٩٧٧/١١/١٩ اي بعد ستين فقط ؟

واما ان تقييد من النصر النسبي لترفع مستوى وعيها ووعي الشعب ، ومستوى نضالها ، فتبقى حريصة على الاهداف الكبرى كاملة وواضحة ، وتتوسيع للشعب باستمرار ، المسافة التي ما زالت تبعد عن هذه الاهداف^(٨) .

تلك هي الاسس التي قامت عليها نظرية البعث الى ثورته ، ثورة الامة العربية ، وعلى ضوئها يتبيّن ان البعث ولد (ثورة ثقافية) مستمرة ودائمة . فالبعث يصعد بلا انقطاع نحو حقيقته ، فهو عملية تجاوز وتجدد وابداع ، وثورته مسيرة لا تنتقطع ، حتى يتحدد اتحاداً كاملاً بين امم الامة ورسالتها وبروح العصر الذي يفتح دوره عن حضارة جديدة .

ولم يكن البعث في تصوره هذا سوى الترجمة الامينة لواقع (سياق تاريخي حضاري) تمر به الامة العربية وشعوب العالم الثالث التي عرفت (الاستسلام الكلي للشخصية) جراء ظواهر الاستعمار والتخلف والتجزئة . والتي اصبح النضال بأوسmeans ساحتها واعيق صوره ، قدرها الوحيد لاستعادة حيوتها وقدرتها على النهوض والمشاركة الجدية في مصير العالم .

فأمام القرارات الثلاث ، وتجاربها القومية التحريرية المعاصرة ،

(٨) تطور الفكر الاشتراكي للبعث - ص ٤٤ .

ولئن كانت مصر العربية ، هي القطر الذي شهد الحدث ، فانه ليس حدثاً قطرياً ، فحدوده ومعاناته تمتد على الوطن العربي ، وتمس جوهر قضية النضال العربي في المرحلة الراهنة : حكام واحزاب ومتلقون وقادة ، كانوا بالامس محسوبين على الثورية والتقديمية ، أصبحوا هم اليوم ، يتقدرون المسيرة الرجعية المتواتطة مع الامبرالية والصهيونية ضد الثورة العربية واهداف النضال العربي ، فالنكسة (شاملة) والجواب عليها لا بد ان يكون شامل ، وهي (عميقه) ولا بد ان تستوعب اولاً ، حتى يخرج الحل العميق الشافي من الداخل ، فهي تعبر عن انحراف خطير يأتي محصلة لانواع من الخلل (الفكرى والنفسي والتربوي) ، بعضه ورثاه من مرحلة الانحطاط والاستعمار ، وبعضه الآخر يأتي على شكل مكافآت لاعداء الثورة العربية تتجلى تخطيط بعيد ، وتأمر مكثف ، وجهد لا تكل ، تستند الى مراكز للبحوث تعمل بذكاء شديد وتخطيط علي جهنمي ، لتحطيم الشخصية العربية من داخلها ، وتمزيق المجتمع العربي ، وضرب الانطلاقة العربية التي شهدت اروع ملامحها واكثرها اياماً للعدو ، وتهديداً لكياناته واطماعه في الوطن العربي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، في ميلاد البصر وثورة عبدالناصر وثورة الجزائر ووحدة سوريا ومصر ، وانطلاقة الكفاح المسلح والثورة الفلسطينية ، وثورات العراق في ١٤ تموز و ١٤ رمضان ، واخيراً ١٧ تموز ، التي ارتفعت الى

يصاب هذا الوعي والضمير العالميين بصدمة ليس لسرعتها مثل في التاريخ ، فقد احدثت عملية السادات دهشة وفراحاً لا يمثل لهما داخل الكيان الصهيوني وفي الاوساط الاميرالية التي استغلتها باتجاه معاكس لمعنى قرار الامم المتحدة . فكيف نفسر هذا (الامقحول) الذي يجري على الارض العربية ؟
نحن هنا ، في الوطن العربي ، كنا اقل دهشة فجمahir امتنى كانت تراقب انكشف مؤامرة التسوية المتسارع ، وتدرك لعبه الترويض التي مورست بحقها ، فلم تكن تلك العملية المسرحية بالنسبة اليها سوى فصل معلم جديد من مسرحية التامر التي تجري معظم فصولها في الخفاء وبيطء شديد ، يساعدان ابطالها على القيام بادوارهم في غفلة عن الجمهور ، وعن رد فعله المباشر العنوي الثوري .

فخطوة السادات لم تكن اذن مجرد حادثة ، بل هي كاشف عن مستوى الانيار الذي أصبح يستقر الفسائير ، ويتحدى العقل العربي ، ويؤكد الحاجة الى (ثورة ثقافية) تخرج الحياة العربية من هذا الوادي الغارق بالآلام .

فالجريمة هنا محطة على طريق ، وال مجرم ليس فرداً واحداً او نظاماً بمعزل ، بل نهر وفجوات وطبقات وانظمة ، تسير في قافلة الردة المعاكسة لخط النهضة العربية والاتجاه العام للتطور البشري .

خلل في بناء الشخصية مصدره الرئيس هو (الثقافة الاستعمارية) و (عقلية الانحطاط) الموروثة عن مرحلة الانحطاط .

ومثل هذا الخلل لم توله الحركات الثورية في الوطن العربي، في المرحلة السابقة، اهتماما كافيا، ولم تركز على معالجته التركيز المطلوب . فبقي اختياطيا للردة كامنا في داخل الثورات نفسها .

وهذا هو اول مبرر للثورة الثقافية التي نحتاجها
اليوم *

بـ - الخلل في (النظرة الى الذات) ، فنحن اليوم ، وفي ظل مرحلة التحدى المصيري مع عدو متبلور الهوية ، لا يمكن ان يتغير بالایحاء وبالعواطف وبقدرة ساحر ، لا يمكن ان تكون نظرتنا الى ذواتنا صحيحة الا من خلال معطيات هذا الصراع المصيري والحضارى °

ففي توز ١٩٥٩ ، كتب (فرانز فانون) يقول : (ان الجزائر القديمة قد ماتت . ان مجتمعها جديدا ولد على الارض الجزائرية . ان كل هذا الدم البريء الذي تدفق غزيرا في الشريان على ارض الوطن . قد عمل على انهاض انسانية جديدة)

مستوى جديد في الفكر والتحطيب والممارسة الثورية، وفتحت آفاق هذا القطر الناضل على عملية ثورة ثقافية مستمرة.

فالثورة الثقافية التي نحتاجها اليوم هي من أجل أن تتابع
الصمود وان ينالع انواع الخلل التي استغلتها المؤامرة الدائمة
على القضية العربية لالحاق الادى بالامة العربية ، وانواع الخلل
الرئيسية هذه يمكن ان تمحض في ثلاثة :

٦ - الخلل في (النظرة الى العدو) ، فنحن نواجه عدداً من الأيديولوجيات ومساراته المعروفة على مدى قرن بكامله . ومن يجهل كيف تفكك (الحركة الصهيونية) وكيف تختلط وما هي قيمها ، وما هي أساليب تنشئها للأطفال في (الكيبيوتز) وما هي نظرتها الى الشخصية العربية ، لابد ان يوقيعه جهله ، حتى ولو كان بريئاً ، في مخطط العدو . فكيف اذا رسم له صورة معاكسة لطبيعته وراح يتصرف معه ، لا على اساس الخديعة الكاملة ، بل على اساس الخيانة الكاملة ، فلا يكتفي بأن يطلب السلام والامان والرفاه ، من السفاح الغاصب الطامع المعتدي ، بل انه يتبنى قيم العدو ويصبح معه في صف واحد .

فالمسألة هنا لا تعود (مسألة فكرية)، ومسألة (جهل) او تجاهل حسب، بل هي مسألة (خلل نفسي وتربيوي) اي

الردة بالثورة ، ومن يضع رجليه في أصفاد العدو ويظن
نفسه في حدائق السلام .

ج - اما الخلل الثالث فيكمن في (النظرة الى العالم) . فعدم التسيير بين العدو والصديق ، وبين الخصم والحليف ، لا بل وعكس الآية أحياناً ، بحيث يصبح العدو الامبرالي (صديقًا وحبيباً) ، لا يمكن أن يكون مجرد محصلة للنوعين السابقين من الخلل (في النظرة الى الذات والى العدو) ، بل انه الى حد كبير نتيجة مؤامرة مخططة وموجهة و المسلحة باحدث وسائل العلم لضرب الثورات من داخلها، وتشويه الوعي ، وافساد المؤسسات ، وترويض المناضلين . فمراكم الاباحث في العديد من جامعات الولايات المتحدة الامريكية، هارفرد ، وكولومبيا ، وبرنسون) ، ومعاهد ومؤسسات اكاديمية امريكية كمعهد هوفر (Hoover) تركز اهتماماً عجياً على دراسة (مشكلات الثورة) كما يشير الى ذلك بالتفصيل (يوري كوارين) في كتابه (علم اجتماع الثورة)، فقد اصبح للثورة علم ، و (علم الثورة) سلاح ذو حدين ، فالامبرالية اتخذت منه دليلاً للاهتداء الى انجح السبل لمقاومة الثورات والتآمر عليها ولعمها من داخلها (كما فعلت مع حركة النهود السود) لتعطيل فعالية الثورة وقدرتها على

ان الدم العربي ، دم الشهادة ، الذي تدفق في الجزائر وفي مصر وسوريا وعلى ارض فلسطين ، هذا الدم قد حدد هوية جديدة للوطن العربي ، هوية الانبعاث والنهضة ، ولا يستطيع ان ينال من هذه الحقيقة او يقلل من شأنها احد .

فعروبتنا كنسب موروث لم تعد شرعية الا بمقدار ما نكتشف المعنى النضالي لها ، فلتتابع الطريق الذي سلكه شهداء امتنا ومن يتذكّر عن هذا الطريق فليس بعربي «مهما كان لسانه ولو نه وسجل نقوسه» .

فعروبتنا الموروثة ، لغة وتاريخاً وحضارة ، هي امانة لا نكون جديرين بحملها ولا نستحقها الا عندما تأخذ هويتنا القومية معناها الانقلابي ، معناها التحرري الوحدوي الاشتراكي . فإذا لم تصل نظرتنا الى ذاتنا القومية الى مستوى القدرة على التمييز بين (لا شرعية) عروبة من يحمل السلاح ضد القضية العربية ، ومن يفرط بها ويساوم عليها ويعتبر طريق نضالها ، وبين (الاتساب الحقيقي النضالي) الذي يخلق الفكر المناضل والشخصية المناضلة ، اذا لم نحقق هذا المستوى ، فان ميوعة المقياس كفيلة بخلق حالة من الخداع المزدوج مع النفس ، ومع العدو . وهذا ما رأيناه عندما سمعنا من يتكلم عن الانحطاط باسم الحضارة ، ومن يصف

إلى جانب العدو ، وهو عنصر مهم في نجاح الثورة العربية عندما يتوقف أولاً ، عن أن يكون قدرًا غاشمًا ، ثم عندما يبدأ بالتحول إلى جانبنا ، فأول ملمح من ملامح الطريق إلى الثورة الثقافية في الواقع العربي الراهن هو في تحقيق هذا التحول الذي يبدأ بريط (البني الفوقي) من إعلام وثقافة وتربيه وتشريع وادب وفلسفة وفن ، وكل مكونات الوعي القومي والاجتماعي والحضاري ، وكذلك البني القاعدية (أي تحويل الطبيعة وتطوير الاقتصاد) بحاجات معربة داخلية وخارجية طويلة وواسمة .

فنحن لا نستطيع أن نحتال على الزمن ، ولا بد أن ندفع ثمنا عادلاً في نضالنا ، ولكننا في الوقت الذي لا نستطيع فيه أن نخرج المراحل ، لا يجوز أن (نطيل في عمر المراحل) التي اتّهت وينبغي أن تزول ، فلا بد من تعبيئة القوى ، وتركيز الجهد من أجل تهديم المعوقات حتى لا تتحول إلى أسلحة مضادة في أيدي العدو .

وإذا كانت المعركة المتصلة وعلى المدى البعيد ، ما تزال حتى الآن قدرًا يفرضها علينا العدو ، فإن الثورة الثقافية تبدأ من تحويل هذه المعركة إلى دستور لحياتنا يملي على الثقافة وعلى الاقتصاد وعلى كافة المؤسسات ضرورات التكيف باتجاه المعركة فتشمل مدرسة المعركة ، وثقافة المعركة ، واقتصاد المعركة ، وأخلاق المعركة إلى جانب معسكر المعركة وثكنة المعركة وميدان المعركة ، تلك هي

الاستمرار في التطور ، ولتحويل عناصر من داخل الثورة إلى ألد أعداء الثورة .

وعلى ضوء هذه الأنواع الثلاثة من الخلل تصبح الحاجة إلى احداث تحول حاسم وعميق في النظرة إلى الذات وإلى العالم في الوطن العربي ، قضية ملحقة ، فالثورة العربية لن تتمكن من التسلح بأسلحة متفوقة على أسلحة العدو ، وستتأصل جذور الانحراف والردة ، إلا إذا امتلكت أجوة حية وشافية على انهيارات المرحلة العربية التي تكررت بدءاً من الانقسام عام ١٩٦١ ، ثم هريمسة حزيران ١٩٦٧ ، واخيراً المبادرة الخيانية المشؤومة عام ١٩٧٧ ، تلك الانهيارات التي لم تسكن الاجوبة الدفاعية السابقة ، من وقفت تدهورها .

ولكن إذا كانت الثورة الثقافية تشكل الجواب الحتمي بالنسبة إلى حركة الثورة العربية اليوم ، فما هي ملامح هذا الطريق؟

في معركة مع عدو صهيوني وأميريالي ، لا تكافيأ اليوم معه في مستوى التقدم العلمي والتكنولوجي الحديث وفي مستوى التنظيم والتعبئة ، وغيرها من مكتسبات الغرب ، ولا يتکافأ معنا في شرعية القضية وانسانية الرسالة وتقدمية الايديولوجية ، يصبح عامل الزمن شيئاً مهماً وخطيراً ، فهو مأساة مدمرة إذا بقي طويلاً

معركة النهضة التي يمكن ان تتكافأ مع معركة الغزو والاحتلال
والعنصرية والفاشية للعدو .

فالمعركة ، كمسيرة تتبلور حولها حياتنا برمتها ، وتنشأ
أجيالنا ضمن اطارها ، هي طريق تنشئة حياتنا من رواسب عهود
الانقطاع والاستعمار وتشويه النفوس والتحويل الثوري للعادات ،
وببناء (الإنسان) الذي يفهم بعمق معنى الثورة ، ويربط القيم
النضالية بمح-tooها التقديمي والأنساني الصحيح ، واعداد (الجيل)
المستوعب لمهمته التاريخية .

فطريقنا الى الثورة الثقافية اليوم هو الطريق ذاته الذي
سلكته الامة العربية عندما انتقلت من الجاهلية الى الحضارة ،
فتكون العقلية الوحدوية والنفسية الاشتراكية ، والروح الثورية ،
والزعامة الحضارية ، والإيمان بالحرية ، لا يمكن ان يتم وسط اطر
تقليدية ضيقة ، ومؤسسات بيروقراطية ، ومقاييس عادلة ، فلا بد
من مدرسة وعمل وحقل ، تعمل جميعها ، وتعلّم وتفاعل من خلال
مدرسة اوسع هي مدرسة (الحياة - المعركة) .

وفي ظل هذه النظرة تبرز الملامح المكملة للثورة الثقافية
المطلوبة :

آ - (نواة وحدوية) نامية تتصهر فيها قوى النضال العربي ،
وتسوّع كل دروس المرحلة ، وتستأنف مسيرة النضال

١٧٠

بمستوى جديد ، يفتح الحدود المطلة على العدو جنبا الى
جنب مع الحدود المطلة على الامراض الداخلية التي تشن
ارادة النضال .

ب - (طاقة جماهيرية متفجرة) تعيد للشعب العربي سيطرته على
الشارع ، وتفتح ابواب امام ديمقراطية شعبية واسعة تتسع
للمحيطات البشرية على امتداد الوطن العربي ، وتتفجر من
خلالها قوى النضال ، وتحول الى طاقة مشعة تضاعف مردود
العمل النضالي . فالديمقراطية والافتتاح على الشعب
والإيمان بالحرية وحقوق الانسان دعوة مضللة اذا لم تكن
جزءا من استراتيجية المعركة . وهي لا يمكن ان تكون
جديدة ولا يمكن ان تتحقق الا ضمن اطار مسيرة نضالية
شاملة وصاعدة تدخل الجماهير في قلب المعركة وتعمق
مشاركتها في قيادة النضال وتتوفر لها شروط الابداع في
النضال .

د - (اصلاح تربوي شامل) يحقق شروط خلق الشخصية المبدعة
في النضال ، ويربط تكوين الطفل العربي والاجيال العربية
بحاجات المعركة . فالقيم الثورية والعقلية العلمية الحديثة ،
أي التكوين الانساني الحضاري الذي يمكن ان نواجهه
به التحدي مع العدو ، وان ننصر به عليه ، لا يمكن ان تنمو
الا ضمن اجواء النضال الجدي الحقيقي الذي ينبغي ان

أنواع الخل في النظرة إلى الذات والى العدو والى العالم
ولمتابعة المسيرة النضالية الهدافة إلى تحقيق إنسانية جديدة على
الارض العربية .

انظر :

Lucian. W. Pye - MaoTse - Toung. Un Portrait. 1976.
p. 269 Paris - Hachette Essais.

* * *

1. E. C. Pishell. La révolution ininterrompue. Gallimard 1964.
2. J. ESMEIN. La révolution culturelle. Seuil. 1970.
3. M. A. Macciochi - De la chine. Seuil. 1971.
4. J. P. Dollé. Le désir de la Révolution. Grasset. 1972.
5. René Dumont. Chine - la Révolution culturelle Seuil. 1976.
6. René Dumont. Chine - la Révolution culturelle Seuil. 1976.
7. A. B. C. Domenach - Regards froids sur la Chine. Seuil 1976.

٧ - (جان دوبيه) تاريخ الثورة الثقافية في الصين . دار الطليعة
١٩٧١

٨ - (شرام وغارودي) ماركسية ماوتسية توونغ . دار الطليعة
١٩٧١

٩ - (البرتومورافيا) ثورة ماو الثقافية . المؤسسة العربية
للدراسات والنشر ١٩٧٢

يلمسه الطفل امام كل معطيات وجوده الحسي .
فلئن كان عدونا قد وضع نفسه واجياله امام مأزق تاريخي ،
وراح يتذرع بأساليب مصطنعة للحياة ذات طابع فاشي ،
زرعت في قوس افراده وفي شخصياتهم، كل امراض الحضارة
الاوربية ، واقام شرط وجوده المصطنع المفروض بقوّة التآمر ،
على اساس تحطيم الوجود العربي وتفتيته ، فاننا - نحن ابناء
الامة العربية - لا نحتاج الى شيء من الاصطناع في نضالنا ،
لان النضال هو الحالة السوية الوحيدة بالنسبة الى العرب
في مرحلة نهضتهم المعاصرة ، وكل شيء في هذه النهضة طبيعى
وحق وخير ، طالما انها تحول وانتقال من مرحلة ، ومن اوضاع
غير انسانية وغير عادلة الى حالة من التطور الانسانى
الحضاري التقديمى ، تلتزم من خلاله مسيرة الامة العربية
بمسيرة الثورة في العالم .

فكل ما نحتاج اليه ، هو ان ننسجم مع طبيعة هذه النهضة
وما الثورة الثقافية التي تقودها ثورة قطربنا المناضل ، لاتشغال
الواقع العربي من مستنقع التسوية والاسسلام ، الا بداية التحول
عن دروب التردى والانحطاط التي سلكتها غالبية الانظمـة
المتأمرة على المصير العربي جنبـا الى جنبـ مع العدو الامـريـالي
والصـهيـوني ، وبدءـ فهوـضـ وارـتفـاعـ جـديـدـ بالـثقـافـةـ وـبـالـثـورـةـ ، الىـ
مستوىـ الشـمـولـ الـقـومـيـ وـالـعـقـمـ الـحـضـارـيـ الـمـطـلـوـبـينـ ، لـتصـحـيـحـ